بلادنا فلسطين

(٢٢٩ صفحة من القطع المتوسط طبع القاهرة ١٩٤٨)

التاريخ القديم للشرق الأدنى

(٢٦٦ صفحة من القطع المتوسط طبع بيت المقدس ١٩٥١)

تأليف الأستاذ مصطفى مراد الدباغ

للأستاذ على محمد سرطاوى

الأستاذ مصطفى مراد الدباغ ، مؤلف هذين الكتابين ، المفتش فى معارف حكومة فلسطين سابقا ، والوكيل المساعد لوزارة المعارف الأردنية اليوم ، وأحد أفراد أسرة الدباغ اليافية ، التى اشتهر أفرادها بالفضل والعلم والأدب ، ومنهم الشاعر المبدع المرحوم إبراهيم الدباغ فى مصر ، علم من أعلام المؤرخين المعاصرين ، وقطب من أقطاب التربية والتعليم جمع إلى العلم الغزير ، الثالية الإسلامية فى أروع صورها

حصل على ثقافة عميقة الجذور فى كلية المعلمين فى بيروت زمن الحكم العثمانى ، بحكم ذكائه الذى جعله الأول على جميع الطلاب فى جميع سنوات الدراسة ، والتحق بالجيش ، فصقلت خشونة الجندية الرجولة الفذة الكامنة فيه ، وطبعته بطابع الصرامة والجد ، فى كل ما يتصل بنفسه وعمله من شؤون ؛ والجندية كالنار ، لا يخرج منها غير المعدن الصافى ، والذهب الإبريز

وحين كانت الجحافل التركية تتراجع أمام جيوش الثورة العربية ، التى كان يقودها المغفور له فيصل بن الحسين ، فى الحرب العالمية الأولى . فى وهاد الأردن ، وأطراف الغوطة ومرتفعات الأرز ، انتقاما من وحشية الاتحاديين ، متمثلة فى فظاعة السفاح ، الطاغية ، جمال ، الذى راح يطارد ، فى جنون السلطان المطلق ، أحرار العرب ، ويسوق إلى أعواد المشانق ، الصفوة الممتازة من رواد الحرية فى الأمة العربية ، فى عالية ، وقد التفت حوله بطانة مجرمة من رجال السوء ، والخونة المارقين فى أردية الكهنوت الإسلامى ، كانت تعمل فى الوقت نفسه لحساب الحلفاء ، راحت

وأثقلت قلبى الرزايا والمحن
فهى وشوشاتك للكلمة والحرف
ما يخفف عن القلب أثقاله
وفى دبيبك على القرطاس . .
ما يفك عن الصدر أغلاله . .
ويحملنى بعيدة
بعيدة على أجنحة الأثير
لولاك ياقلم
ما اتسعت بى الأرجاء
ولما كنت خفيفة طليقة كالنسيم
رغم نفسى المثقلة
المقيدة بأسباب الحقيقة والوجود
لولاك
ما كان لى تعزية ساعات معدودة
ولكنت سلكت مسالك الناس
وكشفت لهم عن آلامى
ولكننى لم أجد قلبا كقلبك
يتسع لسبر أغوارى
وكشف خبايا نفسى
أبثك لأعلن لك أسرارى
وأطرح عليك أثقالى

* * *

وبعد فأنا موقن بأن الشاعرة « هند » لو كتبت هذه القطعة على أنها لوحة نثرية لجاءت غاية فى الروعة ، ولكانت أقوى ألف مرة ، من هذا التمزيق والتقسيم والتقطيع لأوصال الكلمات والجمل حتى يمكن أن يطلق عليها اسم الشعر المنثور . . وما أثقله من اسم

أنور الجندى

تلك الفئة التي تجرى فى شرايينها معانى الرق ، تحرف كلام الله عن مواضعه إرضاء لطغيانه ، وتفتيه فى خيانة أولئك الأحرار ، محللة له سفك دمائهم باسم الدين ؛ لم يكد ذلك ليتم حتى كان حاييم وايزمن ، المحاضر فى جامعة منشستر يقهقه ملء رئتيه ، فى عاصفة هوجاء من المرح الأرعن ، ويشرب مع أصحابه الغادرين ، نخب النصر الذى أحرزه على المغفور له الملك حســـين بن على ، بوعد بلفور

لم يكن وعد بلفور فى حقيقته غير بداية الهجوم على الشرق فى حرب صليبية مقنعة ، لم يكن للضمير الإنسانى فيها أى نصيب ، وتضاءلت فظائع القدامى من الفاتحين أمام وحشيتها ، وضراوتها ، وهمجيتها ، لكم حاولت — يشهد الله — تلك الحفنة الباسلة ، التى كان نصيبها أن تكون فى خط النار الأول فى معركة الهجوم الوحشى على الشرق الأدنى ، من أبناء فلسطين — أن ترسم أمام الأعين التى يغط أصحابها فى سبات الغفلة العميق ، صورة الدوحة الهائلة تنبت من البذرة الصغيرة ، وأن تجسم الخطر الذى سيهدد أمن الشرق جميعه من وراء عبارات وعد بلفور المتواضعة ، ولكن كل تلك الجهود ذهبت عبثا ، ولم يكن أمامها غير الثبات إلى النهاية متحملة الخسائر فى كل شئ ، مدى ثلث قرن من الصراع الرهيب بين قوى غير متكافئة ، وهى منفردة فى معركة الشرف لم تتزحزح ، ولم تفرط ، حتى غلبت على أمرها ، وشردت عن أوطانها ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، بعد أن استبيحت المحارم ، وانتهكت الأعراض ، ودنست المساجد ، فى عار لم تسجل صحف التاريخ مثله على أمة من الأمم ، وسيظل الذين ظاهروا عليه ، موضع اللعنة من الله ومن الأجيال المقبلة فى تاريخ الأمة العربية والتاريخ الإنسانى إلى يوم يبعثون

عاد (أبو عمر) إلى أرض الوطن الذى بارك الله ثراه بإسراء سيد المرسلين إلى المسجد الأقصى فيه ، فرأى أن العمل الخليق بالجندى الباسل هو التعليم ، بحكم مافيه من شرف بالغ ، وتضحيات جسيمة ، وعمل مجيد للأمة يمد جذور حياتها إلى ذرى المستقبل

التحق بإدارة المعارف ، مدرسا لثانوية الخليل ، ثم أستاذا محاضرا فى كلية المعلمين بالقدس ، تلك الكلية التى طافت بها نفحات قدسية قومية ساحرة من عبقرية شاعر الأمة العربية معروف الرصافى رضوان الله ورحمته عليه ، يوم أن كان أستاذا محاضرا فيها ، ثم الحق بإدارة التفتيش وبقى فيها حتى اليوم الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ وهو اليوم الذى انتهى فيه الانتداب البريطانى على فلسطين

كانت المشكلة التى تواجه الوطن القومى ، والتى كان يخيل للقائمين على تأسيسه أنها مستعصية الحل ، هى الحصول على الأراضى الكافية لإقامة القلاع الحربية فى مظاهر متواضعة من الأكواخ البسيطة ، غير أن القدر الساخر مالبث أن جعل المشكلة بصورة عجيبة ، عن طريق انتقال صفقات هائلة من أخصب الأراضى ، قامت عليها من أزمان موغلة فى القدم ، قرى ، ومزارع وفلاحون ، إلى الأيدى الصهيونية ، كانت تملكها الأسر الكبيرة من غير أهل فلسطين ، تقيم فى الأقطار العربية المجاورة ؛ ذلك إلى جانب الوسائل الجهنمية التى ابتدعها رئيس النيابات العامة نورمان بنتويش ، بما كان يصدره من أنظمة تعسفية وقوانين غريبة لوضع البلاد فى أسوإ الأوضاع التى من شأنها أن تعجل فى إقامة صرح الوطن اليهودى

وكان لا مفر لبناة الوطن القومى اليهودى من رسم مناهج التدريس فى المدارس العربية الحكومية رسما بارعا ، تعين النتائج فيه على بناء ذلك الوطن ، بخلق طبقة مستغربة من العبيد ، لا تعرف مكانها من الكرامة ، ولا تاريخها المجيد فى تواريخ الأمم والشعوب ، تعيش ليومها ، ضيقة الآفاق ، تعبد الغرب بدلا من الخالق ، يملأ الغرور نفوسها ، ويوهن ما فى ضمائرها من خلق وشرف ورجولة ، طول الجرى وراء أجساد العاهرات من بنات إسرائيل ؛ ولكن الله رد كيدهم إلى نحورهم ، فلم تفلح مناهجهم الآثمة فى إخراج واحد من أبناء فلسطين ، على النمط الذى أرادوه

وكانت محاولة الإصلاح فى جو موبوء مسموم من هذا النوع ، ضربا فى حديد بارد ، ونفخا فى رماد ، ولكن الأستاذ الدباغ ، رأى فى تلك المناهج ، على الرغم مما فيها من فساد ، شيئا لا بأس به من الخير ؛ إذ ليس هنالك خير مطلق ، أو شر مطلق فى الوجود ، وراح كالغواص البارع ، يبحث فى ظلامها الدامس عن الدر والجوهر ، فوجد من ذلك ما حاول به إصلاح سوء النية فى وضعها ، وراح يركز نشاطه فى بيئة الفلاحين ، وفى مدارس

الريف باعتبار الفلاح الحارس الأمين على أرض الوطن التي امتزج ثراها بدماء الفاتحين من خير أمة أخرجت للناس، وكان يهيب بضمائر المعلمين ، ويبيح لهم التحلل من القيود المنهجية في الحد الذي يبصره الضمير القومي من حذف أو زيادة أو تغيير ، وأن تركز المسائل الحسابية على شراء الأرض ، وأن لا يجري بيعها على لسان أبدا

وظهر في هذه الفترة كتابه (في القرية) ، ويدعو فيه إلى تركيز القوى للنهوض بالفلاحين ، وتوفير ما يكفي من الخدمات الصحية والتعليمية لرفع مستواهم ، وتوفير عدالة اجتماعية في الحدود الممكنة

وأدرك السير (آرثر واكهوب) المندوب السامي على فلسطين آنذاك ، والذي كان يتظاهر بصداقة الفلاحين ، ويكثر من زيارتهم ، والحفاوة بهم ، على الرغم من دخول أكبر عدد من المهاجرين أيام حكمه ، وكأنما كان يمثل دور الصياد الذي يبكي وهو يذبح العصافير في القصة المشهورة ؛ أدرك ذلك الداهية الأريب والجندي المندوب ، وكان رجلا ، قدر المؤلف الرجل ، وقدر صدق وطنيته — وكان للسير واكهوب ضمير إنساني حساس ، يختلف عن ضميره الرسمي — فبعث إليه بكتاب يطفح بالشكر ، وينوه بمجهوده نحو إصلاح القرية ، ويطلب إليه المزيد من العناية ، ويبارك عمله المجيد

* * *

من أبرز ما يمتاز به (أبو عمر) ، الأستاذ الدباغ ، إحساس عجيب يسبق الزمن ، وما يجري وراءه من أحداث ، أو ما قد تتمخض عنه تلك الأحداث من مفاجئات ونتائج . ومن مظاهر ذلك الإحساس انكبابه على تأليف موسوعة تاريخية في هذه الفترة أطلق عليها اسم (بلادنا فلسطين) . وكأنما ألقي إليه من وراء الغيب ، أو أدرك بحاسة سادسة عجيبة ، أن أحداثا جساما في طريقها إلى تلك البلاد ، تأكل الأخضر واليابس ، وتمحو من سجل الوجود مدنا وقرى بأسرها ، وتشرد أهلها

وقد كانت طريقته في تأليف تلك الموسوعة السير من المعلوم إلى المجهول . كان يسائل المعمرين عما يعرفون من تاريخ قراهم أو مدنهم ، وأنسابهم ، وكل ما يتصل بماضيهم من شؤون وشجون ، حتى إذا ما دون أقوالهم ، انقلب إلى مكتبة غنية بالمصادر أنفق جهدا ومالا في سبيلها ، يراجع وينقب ، حتى يصل إلى بعض الحقائق فيما لديه من أقوال . قد يرفضها كلها ، وقد يحذف بعضها ، وقد يزيد عليها ، وقد يدفعه البحث والتدقيق ، عن حقيقة من الحقائق ، إلى السفر من مدينة إلى أخرى ، أو إلى قطر مجاور ، حتى إذا فرغ من الأساس التاريخي لبحثه عن تلك القرية أو المدينة ، انصرف إلى البحث عن الحاضر ، وهو أمر ميسور تبرع لمعاونته عليه عدد كبير من المعلمين والموظفين في مختلف الإدارات الحكومية ، فكانوا يجمعون الإحصاءات المفصلة من التقارير الرسمية ، أو يحصون بأنفسهم ، وبمساعدة أهل القرى ، مالا يدخل في تلك التقارير ؛ فتجمع لديه من كل ذلك معلومات دقيقة عن عدد السكان ، ومقدار الذكور والإناث ، وعدد المتعلمين ، ونوع التعليم ومستواه ، وعدد المدارس والطلاب والمعلمين ، وأنواع المحاصيل ، وعدد أشجار الفاكهة ، والمساحات التي تزرع بأنواع المزروعات ، وعدد الحيوانات ، والبيوت ، والمساجد ، إلى آخر ما هنالك من التفاصيل التي لم يسبق أن استعملها مؤرخ سابق على هذا النوع الدقيق من الأسلوب العلمي المضني الذي ينوء به الفرد ولا يقوى عليه

وتقع هذه الموسوعة في عدة مجلدات ضخمة ، تولت مكتبة الطاهر إخوان عام ١٩٤٧ طبع الجزء الأول — القسم الأول ، منه في مطابع دار التوزيع والطباعة والنشر في القاهرة — وتشاء الصدف العجيبة أن يخرج هذا الجزء في شهر أيار من تلك السنة ، وهو الشهر الذي انتهى في منتصفه بعد عام واحد (١٩٤٨) الانتداب البريطاني على فلسطين

يقول الأستاذ الدباغ في المقدمة : (هذه البلاد عربية منذ آلاف السنين ، وأول من عرف من سكانها الموجات العربية الأولى التي نزلتها ، وقد قدستها الأديان العظيمة التي تدعو لخير البشرية ...

اجتهدت في إخراج هذا الكتاب في أجزاء عدة ، وجعلت بحثه يشمل تاريخ كل مدينة وبليدة ، وتاريخ ما تمكنت من الوصول إليه عن القرى ، والمزارع ، والأنهر ، مع وصف الحالة الحاضرة في كل منها

وقد رأيت أن البحث لا يستوفى مالم يشتمل على المهم من التاريخ العام للقطر الفلسطينى ، فقسمت هذا البحث على الأجزاء جميعها ، بحيث لا يفرغ القارئ منها إلا ويكون لديه سفر تاريخى لهذه البلاد منذ أقدم الأزمنة إلى قبيل الوقت الحاضر ...

يبحث الجزء الأول من هـذا الكتاب عن تاريخ القطر الفلسطينى ، منذ فجر التاريخ إلى انقسام المملكة اليهودية ، وعن تاريخ مدن وقرى وقبائل بلاد نابلس

وسيتناول الجزء الثانى البحث عن غزة والسبع ، وقراها وقبائلها ، كما أن البحث فى الجزء الثالث سيدور عن يافا والرملة واللد وجوارها

وأرجو المولى أن يوفقنى لإتمام البحث عن المناطق الأخرى من فلسطين

ثم تجهمت أحداث الزمن ، وتوالت النكبات بسرعة فأوقف طبع الأقسام التالية من الجزء الأول ؛ وليت الأمر وقف عند هذا الحد ! بل تعداه إلى خسارة فادحة بفقدان الأجزاء التى لم تطبع من الكتاب ، حين كان الأستاذ الدباغ ضمن آخر جماعات أرغمت على مغادرة يافا فى باخرة رأى ربانها إلقاء عدد من الحقائب من حمولتها إلى مياه البحر ، وكانت الحقائب التى تحمل ذلك الكنز الثمين من بينها . وكأن القدر أراد أن لا يبقى كتاب يتحدث عن بلاد ذهبت وذهب أهلها

لقد أورد الأستاذ مقتبسات من الأحاديث النبوية فى الفصل الأول جاء فيها

١ — عن معاذ قال : قال رسول الله (ص) : (يامعاذ . . إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدى من العريش إلى الفرات فمن اختار منكم ساحلا من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو فى جهاد إلى يوم القيامة)

٢ — عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله (ص) (يجند الناس أجنادا ؛ فجندا بالشام، وجندا باليمن، وجندا بالعراق، وجندا بالمشرق ، وجندا بالمغرب ، فقلت يارسول الله ، إنى رجل حديث السن ، فإن أدركت ذلك الزمان فأيها تأمرنى يارسول الله ؟ فقال : عليك بالشام فإنها صفوة الله فى أرضه ، يسوق إليها صفوته من خلقه)

٣ — روى الشرف بسنده عن كعب قال : (أحب البلاد إلى الله الشام ، وأحب الشام إلى الله تعالى القدس ، وأحب القدس إلى الله تعالى جبل نابلس ، ليأتين على الناس زمان يتماسحونه بالحبال بينهم) صدق رسول الله فقد جاء ذلك الزمان

« ومن المصادفات العجيبة أن صلاح الدين الأيوبى ، تسلم القدس من الفرنج يوم الجمعة فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هجرية أى فى ليلة المعراج المنصوص عليها فى القرآن الكريم، وهذا اتفاق عجيب ، فقد يسر الله بأن تعود القدس إلى أصحابها فى مثل زمان الإسراء بالنبى الكريم (ص))[1] ترى من هو القائد العربى العظيم الذى أعدته قدرة الله لشرف إعادة القدس من الصهيونيين ؟

أما كتاب الأستاذ الثانى (التاريخ القديم للشرق الأدنى) فهو تلك القصة الخالدة من الصراع الدائم فى تاريخ الحضارة ، يتابع المؤلف أحداثها فى وصف تاريخ ولفتات رائعة تدل على فهم لما وراء حوادث التاريخ ، من عصر إلى عصر ، عبر الزمن الغابر البعيد ، والإنسان هو الإنسان لا يتغير ولا يتبدل . لقد كان الشرق الأدنى ولا يزال ، مقابر الفاتحين ، فى جميع عصور التاريخ ، والجسر الذى عبرت فوقه موجات الحضارة ، وموجات الفتح ؛ ولم يعرف الزمان تاريخا معقدا مشتملا بالحوادث الجسام كتاريخ هذا الجزء المتعب من العالم ، يتصارع الأمم على وفرة خيراته وطيب مناخه، وموقعه الطبيعى الاستراتيجى وهو يربط أجزاء القارات الثلاث العظيمة

يقول الأستاذ فى مقدمة كتابه : (هذا كتاب وضعته لطلاب المدارس الثانوية ، وللطلاب الذين يستعدون لامتحان الاجتياز إلى التعليم العالى ، إلا أن القراء عامة ، فى وسعهم أن يستفيدوا منه ، إذ يطلعون فيه على صفحة من تاريخ الشرق العربى فى العصور القديمة ، وقد تبسطت فى الكلام عن تاريخ بلاد الشام وعلى الأخص تاريخ القسم الجنوبى منها ، وهو القسم الذى يعرف الآن باسم « المملكة الأردنية الهاشمية » ، وكان يسمى قبلا « فلسطين وشرق الأردن » وهذا البحث ، على ما أعلم، لم يتعرض

(١) بلادنا فلسطين ١ . ١٥